القيم الانسانية في الاسلام

أ. د. يوسف القرضاوي

وأعني بالقيم الانسانية تلك التي تقوم على احترام كرامة الانسان وحريته وحرماته، وحقوقه، وصيانة دمه وعرضه وماله وعقله ونسله، بوصفه إنساناً، وعضواً في مجتمع.

ونركز هنا على مجموعة من القيم الأساسية وهي : العلم، والعمل، والحرية، والشورى، والعدل، والإخاء.

العلم :

العلم قيمة من القيم العليا، التي جاء بها الاسلام وأقام عليها حياة الانسان المعنوية والمادية، الأخروية والدنيوية، وجعله طريق الايمان وداعي العمل، وهو المرشح الأول للخلافة في الأرض، وبه فضل آدم أبو البشر على الملائكة الذين تطلعوا إلى منصب الخلافة؛ لأنهم أعبد لله من الذين توقعوا منهم أن يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء، فقال تعالى رداً عليهم :

«إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها...» الآيات : ٣٠-٣٣ من سورة البقرة.

إن الاسلام هو دين العلم، والقرآن كتاب العلم، وأول ما نزل منه على الرسول الكريم : «اقرأ باسم ربك الذي خلق» (سورة العلق : ١) والقراءة هي باب العلم.

والقرآن : «كتاب فصلت آياته لقوم يعلمون» (سورة فصلت : ٣).

والقرآن يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» (الزمر : ٩).

كما يجعل أهل العلم هم الشهداء لله تعالى بالتوحيد، مع الملائكة «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط» (آل عمران : ١٨).

وأهل العلم كذلك هم المؤهلون لخشية الله تعالى وتقواه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فلا يخشى الله إلا من عرفه، وإنما يعرف الله بآثار قدرته ورحمته في خلقة. ولهذا جاءت هذه الجملة في سياق الحديث عن آيات الله تعالى في الكون «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها (فيه أشارة إلى علم النبات والزراعة) ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها غرابيب سود. (فيه أشارة إلى علم الجيولوجيا) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، (فيه إشارة إلى سائر علوم الحياة والانسان وما يتعلق بهما) انما يخشى الله من عباده العلماء» (سورة فاطر : ٢٧، ٢٨).

والقران أعظم كتاب ينشيء (العقلية العلمية) التي تنبذ الخرافة، وتتمرد على التقليد الأعمى، للأجداد والآباء أو للسادة والكبراء، أو للعوام والدهماء، وترفض الظنون والأهواء في مقام البحث عن الحقائق والعقائد اليقينية، ولا تقبل دعوى إلا ببرهان قاطع، من المشاهدة المؤكدة في الحسيات، ومن المنطق السليم في العقليات، ومن النقل الموثق في المرويات.

ويعتبر القرآن النظر فريضة، والتفكير عبادة، والبحث عن الحقيقة قربة. واستخدام أدوات المعرفة شكرا لنعم الله، وتعطليها سبيلا إلى جهنم.

اقرأ هذه الآيات في القرآن، وهي غيض من فيض :

«وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون؟» (البقرة : ١٧٠).

«وقالوا : ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا» (الأحزاب : ٦٧، ٦٨).

«قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون» (الأعراف : ٣٨).

«وما لهم به من علم، ان يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً» (النجم : ٢٨).

«إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» (النجم: ٢٣)

«ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله» (ص : ٢٦).

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (النحل : ٧٨).

«ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسئولا» (الاسراء : ٣٦).

«نبئوني بعلم إن كنتم صادقين» (الأنعام : ١٤٣).

«قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون» (الأنعام : ١٤٨).

«إيتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين» (الأحقاف : ٤).

«قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (البقرة : ١١١).

«أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» (الأعراف : ١٨٥).

«قل : انظروا ماذا في السموات والأرض» (يونس : ١٠١).

«قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادي ثم تتفكروا» (سبأ : ٤٦).

وينوه القرآن في كثير من آياته ب(أولى الألباب) و(أولى النهي) و(أولي الأبصار).

ويبين أن في كتابه المسطور (القرآن) وكتابه المنظور (الكون) آيات (لقوم يتفكرون) و(لقوم يعقلون) و(لقوم يعلمون).

وكم فيه من فواصل تنبه العقول الغافلة مثل : «أفلا تعقلون؟» «أفلا تتفكرون».

وعلماء الاسلام متفقون على أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وأن منه ماهو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

ففرض العين مالابد للمسلم منه في فهم دينه عقيدة وعبادة وسلوكا، وفي عمل دنياه، حتى يكفي نفسه، وأسرته، ويسهم في كفاية أمته.

وفرض الكفاية كل ما به قوام الدين والدنيا للجماعة المسلمة، من علوم الدين وعلوم الدنيا.

ولهذا قرر علماء المسلمين أن تعلم الطب والهندسة وغيرهما من فروع العلم، وكذلك تعلم الصناعات التي لا تقوم حياة الناس إلا بها، فرض كفاية على الأمة، فإذا وجد فيها عدد كاف من العلماء والخبراء والفنيين في كل مجال، بحيث تسد به الثغرات، وتلبي الحاجات، فقد أدت الأمة واجبها، وسقط الاثم والحرج عنها، وإذا قصرت الأمة في جانب من هذه الجوانب الدنيوية، وغدت عاله على غيرها كليا أو جزئيا، فالأمة كلها آثمة وبخاصة أولى الأمر فيها.

وعلى ضوء هذه المعاني قامت حضارة اسلامية رفيعة البنيان، متينة الاركان، جامعة بين العلم والايمان.

ولم يعرف في هذه الحضارة ما عرف في أمم أخرى من الصراع بين العلم والدين، أو بين الحكمة والشريعة، أو بين العقل والنقل. بل كان كثير من علماء الشرع أطباء ورياضيين وكيمائيين وفلكيين وغيرهم.

وقد بين الامام محمد عبده أن أصول الاسلام تتفق كل الاتفاق مع العلم والمدنية. وأقام على ذلك البراهين الناصعة من نصوص الدين ومن تاريخ المسلمين. وذلك في كتابه القيم (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية).

العمل :

وهو ثمرة العلم، ولهذا قيل في تراثنا : علم بلا عمل، كشجر بلا ثمر، أو سحاب بلا مطر.

وهو أيضا ثمرة الايمان الحق، إذ لا يتصور إيمان بلا عمل.

ومهما يختلف علماء الكلام في اعتبار العمل جزءا من حقيقة الايمان، أو شرطاً له، أو أثرا له، فما لا ريب فيه أن الايمان، الصادق لابد أن يثمر عملا. ولهذا قرن القرآن بين الايمان والعمل في عشرات من آياته، ولهذا قال السلف : الايمان ما وقر في القلب.

وصدقه العمل.

والعمل المطلوب هو : بذل الجهد الواعي لتحقيق مقاصد الشارع من الانسان فوق هذه الأرض.

وهذه المقاصد - كما أشار إليها القرآن - تتحدد في ثلاث ذكرها الامام الراغب الاصفهاني في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) وهي :

١ - العبادة، كما قال تعالى : «وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون» (الذاريات : ٥٦).

٢ - الخلافة. كما قال تعالى : «إني جاعل في الأرض خليفة» يعني آدم وذريته (البقرة : ٣٠).

٣ - العمارة. كما قال تعالى : «هو أنشأكم من الأرض وأستعمركم فيها» (هود : ٦١).

وهذه الثلاثة متداخلة ومتلازمة، فالعمارة - عند أدائها بقصد ونية - جزء من العبادة، وقيام بحق الخلافة. والعبادة بمعناها الواسع تشمل الخلافة والعمارة. ولا خلافة بغير عبادة وعمارة.

والعمل المنشود في الاسلام هو (عمل الصالحات) والصالحات : تعبير قرآني جامع، يشمل كل ما يصلح به الدين والدنيا، ويصلح به الفرد والمجتمع. فهو يضم العبادات والمعاملات، أو عمل المعاش والمعاد، كما يعبر علماؤنا رحمهم الله.

ولقد بين القرآن أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف واضح حدده بقوله سبحانه «ليبلوكم أيكم أحسن عملا» (هود : ٧) (الملك : ٢) وقوله : «لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (الكهف : ٧).

ومعنى هذا : أن الخالق جل شأنه لا يريد من الناس أي عمل، ولا مجرد العمل الحسن، بل يريد منهم (العمل الأحسن).

فالسباق بينهم ليس بين العمل السيىء والحسن، بل بين العمل الحسن والأحسن.

ولا غرو أن وجدنا من العبارات القرآنية المأنوسة عبارة «التي هي أحسن» فالمسلم يجادل (بالتي هي أحسن) ويدفع (بالتي هي أحسن) ويستثمر مال اليتيم (بالتي هي أحسن) ويتبع أحسن ما أنزل إليه من ربه» «اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم» (الزمر : ٥٥).

فهو يرنو دائما إلى ما هو أحسن، وليس إلى مجرد الحسن.

والعمل الأقتصادي بكل فروعه وأنواعه من أفضل القربات إلى الله، إذا صحت فيه النية، وأدى بأتقان، والتزمت فيه حدود الله. وخصوصا العمل الإنتاجي من زراعة وصناعة وحديد وتعدين.

وقد توارث العرب من قديم احتقار العمل اليدوي والحرفي وكان أحدهم يؤثر أن يذهب إلى الأمير أو شيخ القبيلة، يسأله المعونة، على أن يبذل جهدا يكفل له عيشا يلائمه، فبين لهم الرسول الكريم أن أي عمل لكسب العيش - وإن قل دخله، وكثر جهده - خير وأكرم من سؤال الناس، أعطوه أو منعوه.

يقول عليه الصلاة والسلام : «لأن يأخذ أحدكم حبله على ظهره، فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها، فكيف الله بها وجهه، خير من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه»[١] .

وفي الحث على الاحتراف يقول. «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[٢] .

وفي الحث على الزرع والغرس يقول : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقه»[٣] .

ومن أروع التوجيهات النبوية في بيان قيمة العمل : الحديث الذي يقول : «ان قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن أستطاع ألا تقوم (أي الساعة) حتى يغرسها فليغرسها»[٤] .

والفسيلة : النخلة الصغيرة. أي ما نسميه (الشتلة).

ولماذا يغرسها والساعة قائمة، وهو لن ينتفع بها، ولا أحد من بعده؟!

إنه دليل على أن العمل مطلوب لذاته، وأن على المسلم أن يظل عاملا منتجا، حتى تنفد آخر نقطة زيت في سراج الحياة!

---

١ - رواه البخاري من حديث الزبير بن العوام.

٢ - رواه البخاري عن المقداد بن معديكرب.

٣ - رواه البخاري ومسلم عن أنس.

٤ - رواه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد.

ان العمل عبادة وقربه، أكل الناس من ثمره أو لم يأكلوا. ولو وعى المسلمون هذه التعليمات لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وكانت مجتمعاتهم في طليعة مجتمعات العالم أنتاجا وثراء، ولم يعيشوا كلا على غيرهم من الأمم، حتى إنهم لا يكفون أنفسهم من القوت اليومي الذي به عيشهم وحياتهم، وبلادهم بلاد زراعية، ولا من السلاح الذي يحتاجون إليه في حماية حرماتهم وأرضهم وعرضهم. فلو كف الآخرون أيديهم عنهم لهلكوا مادياً من الجوع، وهلكوا معنوياً من الذل.

الحريـــة :

ومن القيم الانسانية التي عظم أمرها الاسلام : الحرية، التي ترفع عن الانسان كل ألوان الضغط والقهر والاكراه والاذلال. وتجعله كما أراد الله له : سيداً في الكون، عبداً لله وحده.

وتشمل هذه الحرية : الحرية الدينية، والحرية الفكرية، والحرية السياسية، والحرية المدنية، وكل الحريات الحقيقية.

ونعنى بالحرية الدينية : حرية الاعتقاد، وحرية ممارسة الشعائر، فلا يقبل الاسلام بحال أن يكره أحد على ترك دين رضيه واعتنقه، أو يجبر على أعتناق دين لا يرضاه. ونصوص القرآن الكريم صريحة في ذلك كل الصراحة، ففي القرآن المكي يقول تعالى : «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟» (يونس : ٩٩) وفي القرآن المدني يقول سبحانه : «لا أكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» (البقرة : ٢٥٦).

ومن دخل في ذمه المسلمين من أصحاب الأديان الأخرى، فقد غدا يحمل (جنسية دار الاسلام) له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم في الجملة، إلا ما أقتضته طبيعة التميز الديني، فلا يفرض عليه كل ما يفرض على المسلمين، ولا يحرم عليه كل ما حرم على المسلمين.

ومن الناس من كتب في عصرنا يقول : ان التراث العربي والاسلامي لم يعرف الحرية بالمفهوم الحديث والمعاصر، الذي نقل إلينا من الغرب، بعد الثورة الفرنسية. إنما يعرف الحرية بمعنى (عدم الرق) فقط، فالحر من ليس عبدا، والحرية مقابل الرق والعبودية.

فنحن حين نؤمن بالحرية، أو ننادي بالحرية عالة على فرنسا، فقبلها لم نكن نعرف عنها شيئا!! وإني لأعجب أن يقول هذا أناس يزعمون – ويزعم لهم – أنهم مثقفون وعلميون، وباحثون موضوعيون!

ونظرا لأن بعض الناس قد يغره هذا الكلام المزوق، وجب علينا أن نضع أمامهم بعض الحقائق تبصرة وتذكرة :

أولاً : لا ننكر أن الأصل والحقيقة اللغوية في معنى الحرية، هو ما يقابل الرق الذي يعني تحكم الانسان في آخر وتسلطه عليه. والحرية تعنى التخلص من هذا التحكم والتسلط، وفكاك رقبته منه. ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد للكلمة.

لقد اتسعت الكلمة لتشمل تخلص الانسان من كل تسلط عليه بغير حق، من سلطة جائرة، أو قوة قاهرة.

وفي هذا جاءت كلمة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص، وهي كلمة محفورة في ذاكرة التاريخ : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

وهي كلمة أصبحت تصدر بها الآن الدساتير ومواثيق حقوق الأنسان.

ويقول علي ابن أبي طالب في وصيته لابنه : ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا.

وقد استعمل كثير من الشعراء كلمة (الحر) بمعنى الأنسان العزيز الكريم. كقول من قال :

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة!

وقال الآخر :

والحر من دان إنصافا كما دينا!

وقال غيره في وصف بعض الحسان العفيفات :

حور حرائر ما هممن بريبة كظباء مكة صيد من حرام

وفي أمثال العرب : تجوع الحرة ولا تأكل بثديها!

وقالوا : الصبر مر، لا يتجرعه إلا حر.

ثم إن عدم وجود لفظ أو مصطلح معين يدل على مفهوم أو مضمون نعرفه الآن

لا يعني بالضرورة عدم وجود هذا المدلول أو المضمون.

فقد يوجد هذا المضمون أو المحتوي تحت لفظ أو مصطلح آخر. وقد يوجد منثورا تحت كلمات أو مصطلحات أخرى.

فقد لا يجد الباحث في تراثنا كلمة (المساواة) مستخدمة كما نستخدمها نحن الآن.

ولكنه بأدنى بحث يجد مضمونها مبثوثا منتشرا، في آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم، وفي عبادات الاسلام وشعائره، من الصلاة والصيام والحج والعمرة، وفي أحكام الاسلام وعقوباته التي لا تفرق بين الشريف والوضيع. وفي مباديء الاسلام التي تحطم الفوارق بين الأجناس والألوان والطبقات، وتجعل الناس سواسية كأسنان المشط.

ومثل ذلك : الحرية، فقد يعبر عنها بالكرامة «ولقد كرمنا بني آدم» (الاسراء : ٧٠)

أو بالعزة «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» (البقرة : ٩٢٥٦

أو بتحريم القهر والنهر «فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر» (الضحى : ٩، ١٠).

أو بتحريم الارهاب والترويع «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»[٥] .

أو بتحريم الضرب والتعذيب «من جرد ظهر مسلم بغير حق لقى الله وهو عليه غضبان»[٦] .

وأكثر من ذلك : أن الاسلام يحرص على القتال وإعلان الحرب من أجل تحرير المستضعفين في الأرض من نير الطغاة والمتجبرين. يقول تعالى : «وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، وأجعل لنا من لدنك وليا، وأجعل لنا من لدنك نصيرا» (النساء : ٧٥).

وإذا لم يقدر الناس على مقاومة الطغيان والاستبداد، فلا أقل من أن يهاجروا من

---

٥ – رواه ابو داود والترمذي وحسنه.

٦ – رواه الطبراني في الكبير والأوسط باسناد جيد عن أبي أمامة، كما قال المنذري في الترغيب، ومثله الهيثمي في المجمع (٦ – ٢٥٣).

ديارهم، ولا يقبلوا على أنفسهم الهوان والبقاء تحت نير الظلم والاستعباد. وقد توعد القرآن الكريم بالوعيد الشديد من رضى بهذه الحياة المهينة، واستسلم لها طائعا، فلا هو قاوم مع المقاومين، ولا هو هاجر مع المهاجرين.

يقول الله عز وجل :

«إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا : فيم كنتم؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم، وكان الله عفوا غفورا» (النساء : ٩٧، ٩٨، ٩٩).

على أن الذي يعطي الاسلام حقه من الفهم والتدبر، يجد أن جوهره هو التوحيد، فهو روح الوجود الاسلامي. والتوحيد هو الأساس العقلي والفلسفي لتحقيق مبدأ الحرية، بل لتحقيق مباديء الحرية والاخاء والمساواة جميعا.

وكلمة التوحيد، كلمة (لا إله إلا الله) تعنى إسقاط المتألهين والمتجبرين في الأرض، وإنزالهم من عروش الربوبية المزيفة، والاستعلاء علي الخلق، إلى ساحة المشاركة للناس جميعا في العبودية لله، والبنوة لآدم.

ولهذا كانت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر وأمراء النصارى وملوكهم في مصر والحبشة وغيرها مختومة بهذا النداء : «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : إلا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله» (آل عمران : ٦٤).

إن أعظم ما دمر حرية البشر، وأتى على بنيانها من القواعد، اتخاذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله. ولكي يسترد الناس حريتهم وكرامتهم يجب تحطيم هؤلاء الأرباب الأدعياء، والآلهة المزورين، خصوصا في انفس الذين توهموهم أربابا حقا، وهم مخلوقون مثلهم، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً.

ولقد وعى مشركو العرب هذه الحقيقة منذ دعا النبي صلى الله عليه وسلم من أول يوم إلى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، وعلموا أن وراء هذه الكلمة انقلابا في

الحياة الاجتماعية والسياسية، وأنها تؤذن بميلاد جديد لبني الأنسان، ولا سيما الفقراء والمستضعفين والمسحوقين، فلا غرو ان وقفوا في وجهها، وجندوا كل قواهم لحرب كل من آمن بها، واستجاب لندائها.

الشـــورى :

ومن القيم الأنسانية والاجتماعية التي جاء بها الاسلام : الشورى.

ومعنى الشورى : ألا ينفرد الانسان بالرأي وحده في الأمور التي تحتاج إلى مشاركة عقل آخر أو أكثر، فرأي الاثنين أو الجماعة أدنى إلى أدراك الصواب من رأي الواحد.

كما أن التشاور في الأمر يفتح مغاليقه، ويتيح النظر إليه من مختلف زواياه، بمقتضى اختلاف أهتمامات الأفراد، واختلاف مداركهم وثقافتهم، وبهذا يكون الحكم على الأمر مبنيا على تصور شامل، ودراسة مستوعبة.

فالأنسان بالشورى يضيف إلى عقله عقول الآخرين، وإلى علمه علوم الآخرين، وفي هذا يقول الشاعر العربي :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

وقد دعا الاسلام إلى الشورى في حياة الفرد، وفي حياة الأسرة، وفي حياة المجتمع والدولة.

ففي حياة الفرد يربي الاسلام المسلم إذا أراد ان يقدم على أمر من الأمور المهمة، التي تختلف فيها الوجهات، وتتعارض الآراء والرغبات، ويتردد فيها المرء بين الأقدام والأحجام، أن يستعين بأمرين يساعدانه على أتخاذ القرار الأصوب.

أحد هذين الأمرين : رباني، وهو استخارة الله تعالى، وهي صلاة ركعتين يعقبها دعاء مضمونه أن يختار الله له خير الأمرين في دينه ودنياه، ومعاشه ومعاده.

والثاني : إنساني، وهو استشارة من يثق برأية وخبرته ونصحه وإخلاصه.

وبهذا يجمع بين استخارة الخالق، واستشارة الخلق.

وقد حفظ المسلمون من تراثهم : لا خاب من أستخار، ولا ندم من أستشار».

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يستشيرون النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من أمورهم الخاصة، فيشير عليهم بما يراه صوابا أو أصوب أو أفضل. كما رأينا حين أستشارته فاطمة بنت قيس في أمر زواجها، وقد أبدى الرغبة فيها رجلان : معاوية وأبو جهم. فقال لها : أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبوجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه! أي يضرب النساء. واقترح عليها أن تتزوج أسامة بن زيد.

وكان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يستشير بعض أصحابه في أموره الخاصة كذلك.

فقد رايناه في أزمة (حديث الافك) يستشير علي بن أبي طالب ، ويسأل أسامة بن زيد.

وفي حياة الأسرة يدعو الاسلام إلى أن تقوم الحياة الأسرية على أساس من التشاور والتراضي. وذلك منذ بداية تكوين الأسرة.

ولهذا رفضت نصوص الشريعة أن يستبد الأب بتزويج ابنته – ولو كانت بكرا – دون أن يأخذ رأيها. وأوجب التوجيه النبوي أن تستأذن البكر، وأن كانت تستحيى، فجعل أذنها صماتها. فإن سكوتها عند عرض الأمر عليها دليل على الرضا والقبول.

وقد رد النبي بعض عقود الزواج التي تمت بغير إرادة البنت، لأن الشرع لم يجز لأحد أن يتصرف في مالها وملكها بغير إذنها، فكيف بمصيرها ومستقبل حياتها؟!

بل رغبت السنة آباء البنات أن يشاوروا أمهات بناتهن في أمر زواجهن، أي يشاور الرجل زوجته عند تزويج ابنتهما، وفي هذا جاء الحديث الذي رواه الامام أحمد : «آمروا النساء في بناتهن».

وذلك أن الأم أعلم بابنتها من الأب، فهي باعتبارها أنثى تعرف اتجاهها وعواطفها، والبنت تبوح لأمها عن أسرارها مالا تجرؤ أن تبوح به لوالدها.

وبعد بناء الأسرة ينبغي للزوجين أن يتفاهما ويتشاورا فيما يهم الحياة المشتركة بينهما، وفيما يهم كل واحد منهما على حدة، وفيما يهم حياة ذريتهما ومستقبلها.

ولا يجوز أن يستهان برأي المرأة هنا، كما يشيع عند بعض الناس، فكم من أمرأة

كان رأيها خيرا وبركة على أهلها وقومها.

وما كان أحصف رأي خديجة وموقفها في أول ساعات الوحي، ودورها في تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، والذهاب معه إلى أبن عمها ورقة بن نوفل، ليطمئنه ويبشره.

وكذلك رأي أم سلمة يوم الحديبية. وسيأتي الحديث عنه.

ومن الروائع القرآنية : التنبية على ضرورة التشاور والتراضي بين الزوجين فيما يتصل برضاع الاولاد وفطامهم، ولو بعد الانفصال بينهما. يقول تعالى : «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف.. إلى أن قال : «فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما». (البقرة : ٢٣٣).

الشورى في حياة المجتمع والدولة :

أما الشورى في حياة المجتمع والدولة المسلمة، فقد جعلها القرآن من المكونات المهمة للجماعة المسلمة، وذلك في القرآن المكي الذي يرسى القواعد، ويضع الأسس للحياة الاسلامية. فقد ذكر الشورى في أوصاف المؤمنين، مقرونة بمجموعة من الصفات الاساسية التي لا يتم إسلام ولا إيمان إلا بها. وهي : الاستجابة لله تعالى، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزق الله. وهذا ما ذكر في السورة التي تحمل اسم (الشورى) يقول تعالى : «وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.. إلى أن قال «والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون» (الشورى : ٣٦، ٣٨).

والمراد بقوله : «وأمرهم» : الأمر العام الذي يهم جماعتهم، ويؤثر في حياتهم المشتركة.

وهو (الأمر) الذي أمر الله تعالى رسوله بالمشاورة فيه. فقد قال تعالى في سورة آل عمران من القرآن المدني «وشاورهم في الأمر». آية ١٥٩.

وقد جاء هذا الأمر من الله ورسوله بعد غزوة أحد، التي شاور النبي فيها أصحابه، ونزل عن رأيه إلى رأي أكثريتهم، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين من قرح، وما

اتخذه الله من شهداء : سبعين من خيار الصحابة، منهم حمزة ومصعب وسعد بن الربيع وغيرهم.

ومع هذا أمر الله رسوله بالمشاورة لهم، ومعناه : استمر على مشاورتهم، ففيها خير وبركة، وان جاءت النتيجة في إحدي المرات على غير ما تحب، فالعبرة بالعاقبة.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر الناس مشاورة لأصحابه : شاورهم في غزوة بدر، قبل القتال، وفي أثنائه، وبعده. ولم يدخل المعركة إلا بعد أن أطمأن إلى رضا جمهورهم.

وشاورهم في أحد، فنزل عن رأيه إلى رأي الاكثرية التي رأت الخروج إلى القوم، لا القتال داخل المدينة.

وشاورهم في الخندق، وهّم أن يصالح غطفان على شيء من ثمار المدينة، ليعزلهم عن قريش، وأبى ممثلو الأنصار ذلك، فوقف عند رأيهم.

وفي الحديبية شاور أم سلمة في امتناع أصحابه عن التحلل من إحرامهم بعد الصلح، فقد عز عليهم ذلك بعد نية العمرة. فأشارت عليه أم سلمة أن يخرج إليهم، ويتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يتكلم، فما أن رأوه فعل ذلك، حتى بادروا إلى الاقتداء به.

والاسلام كما يأمر الحاكم أن يستشير،يأمر الأمة أن تنصح له، كما جاء في الحديث الصحيح «الدين النصيحة.. لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامته»[٧] .

وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عامة، تشمل الحكام والمحكومين كافة، كذلك فريضة التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، التي لا نجاة للانسان من خسران الدنيا والآخرة إلا بها. فليس في المسلمين أحد أكبر من أن يوصَى وينصح، ويؤمر وينهي. وليس فيهم أحد أصغر من أن يوصِي وينصح ويأمر وينهى. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشار عليه بالرأي مخالفا لرأيه فيأخذ به، ويدع رأيه الشخصي.

---

٧ – رواه مسلم من حديث تميم الداري، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

وقد بعث أبا هريرة يبشر الناس بأن «من قال (لا إله إلا الله) دخل الجنة» فخشى عمر أن يفهمها الناس فهما مغلوطا، ويفصلوا الكلمة عن العمل، ولذا أوقف أبا هريرة، وبين للرسول خوفه من أن يتكل الناس على ذلك قائلاً : فخلهم يعملون فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : «فخلهم يعملون»[٨] .

وقال أبوبكر في خطابه السياسي الأول بعد توليه الخلافة، يبين منهجه في الحكم :

«إن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وقال عمر : أيها الناس، من رأي منكم في أعوجاجا فليقومني.

فقال له أحدهم : لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا!

فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم عمر بحد سيفه!

وقال له بعضهم يوما : اتق الله ياعمر! فأنكر عليه بعض من عنده أن يقول ذلك لأمير المؤمنين، فقال عمر : دعه. لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

بل إن الرسول يشرع المعارضة المسلحة للأمير الفاجر بشرطين :

الأول : الانحراف البين عن منهج الاسلام في أحكامه، وهو ما أطلق عليه الحديث النبوي «الكفر البواح».

فقد أوصى الرسول من بايعه من أصحابه أن يصبروا على أمرائهم وإن أستأثروا ببعض المكاسب الدنيوية دونهم، قال : إلا أن تروا كفرا يواحا عندكم فيه من الله برهان»[٩] .

والثاني : أن تكون هناك قدرة على إزالة المنكر، دون أن يترتب على إزالته منكر أكبر منه. وإلا وجب تحمل المنكر الأدنى مخافة وقوع المنكر الأعلى. بناء على قاعدة أرتكاب أخف الضررين، وأهون الشرين.

وعند هذا الخوف تنتقل المعارضة من القتال باليد، إلى السياسة باللسان والقلم،

---

٨ – رواه مسلم في كتاب الإيمان.

٩ – متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

إلى الانكار بالقلب، وذلك أضعف الايمان.

وفي هذا جاء حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم :

«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها يخلف من بعدهم خلوف، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل. «رواه مسلم».

والقرآن الكريم ينقل لنا صورة طيبة عن الحكم الذي يقوم على الشورى، ممثلا في ملكة سبأ التي فاجأها كتاب سليمان عليه السلام يحمله الهدهد، فجمعت قومها وقالت «يايها الملأ افتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا : نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك فأنظري ماذا تأمرين. قالت : ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون. واني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون..» الآيات من سورة النمل من آية ٣٢ : ٣٥.

وقد انتهى هذا السلوك الشوري الحكيم بالملكة الرشيدة إلى أن أسلمت مع سليمان لله رب العالمين. فنجت ونجا معها قومها من حرب خاسرة، وكسبت بذلك الدنيا والآخرة.

وينقل القرآن صورة أخرى مظلمة عن الحكم الذي يقوم على التأله والتسلط، مثل حكم فرعون الذي قال للناس «أنا ربكم الأعلى» «ما علمت لكم من الله غيري» والذي لا يستشير في الأمور الهامة إلا بطانته الخاصة، كما رأينا ذلك في قصة فرعون مع موسى، حين حاور فرعون فأفحمه، فهدده بالسجن، فقال موسى : «أولو جئتك شيء مبين؟ قال : فائت به إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. قال للملأ حوله : ان هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره. فماذا تأمرون؟» (الشعراء : آية ٣٠ : ٣٥).

فهذه ليست استشارة حقيقية، لأنها تخص (الملأ حوله) فقط، ثم هي استشارة موجهة، فهو لا يأخذ رأيهم في شأن موسى وماذا تكون رسالته، وما حقيقة أمره؟ بل حكم عليه قبل أن يسألهم الرأي : «ان هذا الساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره».

وقد بين القرآن حقيقة حكم فرعون، وموقفة من رعيته حين قال : «ان فرعون علا في الأرض، وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم، يذبِّح أبناءهم ويستحيى نساءهم، إنه كان من المفسدين» (القصص : ٤).

فهذا (العلو) في الأرض هو ما نعبر عنه في لغة السياسة المعاصرة بكلمة (الطغيان).

وقد كرر القرآن ذلك في وصف فرعون «إنه كان عالياً من المسرفين» (الدخان: ٣١).

ولم يكن علو فرعون وطغيانه على بنى اسرائيل وحدهم، بل على المصريين أيضا، إذا خطر لأحدهم أو لفئة منهم أن يخرجوا عن خطه، ويتمردوا على ربوبيته.

وهذا ما تجلى واضحا في موقفه من السحرة الذين جلبهم من كل صوب لينصروه على موسى، فخذله الله بهم، حين آمنوا برب هارون وموسى، بعد أن تبين لهم الحق من الباطل.

«قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيدكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى». (طه : ٧١).

وانظر إلى قوله : «آمنتم له قبل أن آذن لكم» انه يريد أن يحجر على عقول الناس وقلوبهم، فلا يجوز لعقل أن يقتنع بشيء ولا لقلب أن يؤمن بأمر، إلا بأذنه وبعد تصريح منه!!

لقد ذم القرآن فرعون، وذم القوى الدنسة المتحالفة معه، مثل (قارون) الذي يمثل الرأسمالية البشعة الجشعة، التي لا ترى لاحد عليها حقا فيما تملك من مال. كما جسدها قارون بقوله : «إنما أوتيته على علم عندي» (القصص : ٧٨).

ومثل هامان الذي يمثل السياسيين النفعيين الذين يضعون قدراتهم الذهنية والتنفيذية في خدمة الطاغية الأكبر. فهو عقله المفكر، وساعده المنفذ!

كما شمل القرآن بالذم أعوان الطغاه من الجنود الذين يعتبرون أدوات في أيديهم، يستخدمونها لجلد الشعوب وقهرها، ولهذا قال القرآن : «إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» (القصص : ٨).

ويقول عن فرعون «فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم، فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين» (القصص : ٤٠). وكلمة (الجنود) تشمل كل أعوان الطاغية من عسكريين ومدنيين

والقرآن يحارب الطغيان والاستبداد من عدة نواح :

من ناحية الحملة على الطغاة والمتجبرين في الأرض «كذلك يطبع الله عى كل قلب متكبر جبار» (غافر : ٣٥) «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» (ابراهيم : ١٥).

ومن ناحية الحملة على الأعوان المباشرين من كبار مثل هامان وقارون أو صغار مثل جنود فرعون.

ومن ناحية ثالثة : الحملة على الشعوب التي تسلم قيادها للطغاة، دون أن تسألهم يوما : لم؟ أو كيف؟ بله ان تقول : لا، بملء فيها!

لقد ذم القرآن قوم نوح على لسانه بقوله : «رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا» (نوح : ٢١).

وذم عادا قوم هود بقوله : «واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة» (هود : ٥٩، ٦٠).

وذم قوم فرعون بقوله : «فاستخف قومه فأطاعوه، انهم كانوا قوما فاسقين» (الزخرف : ٥٤).

وعرض القرآن لنا صورا جمة من مشاهد الآخرة، وفيها يتلاوم السادة الكبراء المضلون، وأتباعهم المضللون، ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضا، ويحاول كل فريق أن يلقي بالتبعية على الآخر. ولكن الله يحكم على الجميع بأنهم من أهل النار.

«وقالوا : ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا» (الأحزاب : ٦٧، ٦٨).

«إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا. كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليه وما هم بخارجين من النار» (البقرة : ١٦٦، ١٦٧).

ان أساس قبول القيادة السياسية للأمة في الاسلام هو: الرضا والبيعة الاختيارية.

فمن رضيه المسلمون إماما أي أميرا ورئيسا لهم، وبايعوه على ذلك، فهو الولى الشرعي الذي تجب طاعته في المعروف. وتجب المناصحة له بالحق، والمعاونة له على كل خير.

والاسلام لا يحب أن يؤم رجل الناس في صلاة الجماعة وهم له كارهون، فكيف يقبل أن يقود رجل الأمة كلها في شئونها العامة، وهي له كارهة، وبه ضائقة، وعليه ساخطة؟

جاء في الحديث الشريف : «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا :

رجل أم قوما وهم له كارهون، وأمرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارعان» رواه ابن ماجه.

العدل :

ومن القيم الانسانية الأساسية التي جاء بها الاسلام وجعلها من مقومات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية : (العدل).

حتى جعل القرآن إقامة القسط – أي العدل – بين الناس هو هدف الرسالات السماوية كلها. يقول تعالى : «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» (الحديد : ٢٥).

وليس ثمة تنويه بقيمة القسط أو العدل أعظم من أن يكون هو المقصود الأول من إرسال الله تعالى رسله، وانزاله كتبه.

فبالعدل أنزلت الكتب، وبعثت الرسل، وبالعدل قامت السموات والأرض.

والمراد بالعدل : أن يعطى كل ذي حق حقه سواء كان ذو الحق فردا أم جماعة أم شيئا من الأشياء أم معنى من المعاني، بلا طغيان ولا إخسار، فلا يبخس حقه، ولا يجور على حق غيره.

قال تعالى : «والسماء رفعها ووضع الميزان. ألا تطغوا في الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» (الرحمن : ٧، ٨، ٩).

والاسلام يأمر المسلم بالعدل مع النفس : بأن يوازن بين حق نفسه وحق ربه، وحقوق غيره،.

كما قال عليه الصلاة والسلام لعبدالله بن عمرو، حين جار على حق نفسه بمداومة صيام النهار وقيام الليل. «إن لبدنك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وأن لأهلك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا» متفق عليه.

ويأمر الاسلام بالعدل مع الأسرة : مع الزوجة، أو الزوجات، مع الأبناء والبنات.

يقول تعالى : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» (النساء : ٣).

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» وحين أراد بشير بن سعد الأنصاري أن يشهده عليه الصلاة والسلام على هبة معينة آثر بها بعض أولاده، سأله النبي صلى الله عليه وسلم : أكل أولادك أعطيتهم مثل هذا؟ قال : لا قال : أشهد علي ذلك غيري، فإني لا أشهد على جور»[١٠] .

ويأمر الاسلام بالعدل مع الناس كل الناس : عدل المسلم مع من يحب، وعدل المسلم مع من يكره، لا تدفعه عاطفة الحب إلى المحاباة بالباطل، ولا تمنعه عاطفة الكره من الإنصاف واعطاء الحق لمن يستحق.

يقول تعالي في العدل مع من نحب «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين» (النساء : ١٣٥).

ويقول سبحانه في العدل مع من نعادي «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله» (المائدة : ٨).

وكم حفل التاريخ السياسي والقضائي في الاسلام بمواقف رائعة، حكم فيها لغير المسلمين، ضد المسلمين، وللرعية ضد الدعاة.

يأمر الاسلام بالعدل في القول، فلا يخرجه الغضب عن قول الحق، ولا يدخل الرضا في قول الباطل. يقول تعالى : «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى» (الأنعام : ١٥٢).

ويأمر بالعدل في الشهادة، فلا يشهد إلا بما علم، لا يزيد ولا ينقص، ولا يحرف

---

١٠ – رواه مسلم والنسائي وأحمد.

ولا يبدل. قال تعالى : «وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله» (الطلاق : ٢). «كونوا قوامين لله شهداء بالقسط» (المائدة : ٨).

ويأمر الاسلام بالعدل في الحكم. كم قال تعالى : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» (النساء : ٥٨).

وقد استفاضت الأحاديث في فضل (الأمام العادل) فهو أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأحد الثلاثة الذين لا ترد لهم دعوة.

وبقدر ما أمر الأسلام بالعدل وحث عليه، حرم الظلم أشد التحريم، وقاومه أشد المقاومة، سواء ظلم النفس أم ظلم الغير، وبخاصة ظلم الأقوياء للضعفاء، وظلم الأغنياء للفقراء، وظلم الحكام للمحكومين. وكلما أشتد ضعف الانسان كان ظلمه أشد إثما.

يقول الرسول لمعاذ : واتق دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حجاب[١١] .

وقال : «دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[١٢] .

ومن أبرز أنواع العدل، الذي شدد فيه الاسلام ما سمى في عصرنا : العدل الاجتماعي. ويراد به : العدل في توزيع الثروة، واتاحة الفرص المتكافئة لأبناء الأمة الواحدة، وأعطاء العاملين ثمرة أعمالهم وجهودهم دون أن يسرقها القادرون وذوو النفوذ منهم، وتقريب الفوارق الشاسعة بين الأفر اد والفئات بعضها وبعض، بالحد من طغيان الأغنياء والعمل على رفع مستوى الفقراء.

وهذا الجانب سبق فيه الاسلام سبقاً بعيداً، حتى إن القرآن منذ عهده المكي لم يغفل هذا الأمر الحيوي، بل أعطاه عناية بالغة، ومساحة واسعة.

فمن لم يطعم المسكين كان من أهل سقر المعذبين في النار، قالوا : «لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين» (المدثر : ٤٣، ٤٤).

ولا يكفي أن تطعم المسكين، بل يجب أن تحمل نصيبك في الدعوة إلى اطعامه، والحض على رعاية ضروراته وحاجاته. «أرأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدع

---

١١ – متفق عليه من حديث ابن عباس.

١٢ – رواه أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين» (الماعون : ١ :٣).

واهمال هذا الحض يضعه القرآن جنبا إلى جنب مع الكفر بالله تعالى، الموجب للعذاب الأليم، وصليّ الجحيم «خذوة فغلوة. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين» (الحاقة : ٣٠ : ٣٤).

والمجتمع الجاهلي مجتمع مذموم مسخوط عليه من الله تعالى، لضياع الفئات الضعيفة فيه، وانشغال الأقوياء، بأكل التراث وحب المال : «كلا، بل لا تكرمون اليتيم. ولا تحاضون على طعام المسكين. وتأكلون التراث أكلا لما. وتحبون المال حبا جما». (الفجر : من ١٧ : ٢٠).

لقد اهتم الاسلام بالطبقات الضعيفة في المجتمع، فشرع لهم من الأحكام والوسائل ما يكفل لهم العمل الملائم لكل عاطل، والأجر العادل لكل عامل، والطعام الكافي لكل جائع، والعلاج الكافي لكل مريض، والكساء المناسب لكل عريان. والكفاية التامة لكل محتاج. وتشمل هذه الكفاية : المأكل والملبس والمسكن، وكل مالابد له منه، على ما يليق بحاله، من غير إسراف ولا تقتير، لنفس الشخص ولمن يعوله. وهذا تعريف الامام النووي في (المجموع).

وفرض لذلك الاسلام حقوقا مالية في أموال الأغنياء، أولها وأعظمها الزكاة. التي اعتبرها الأسلام ثالث أركانه، يؤديها المسلم طوعا وأحتسابا، وإلا أخذت منه كرها، ولو ان طائفة ذات شوكة امتنعت من أدائها قوتلت عليها بحد السيوف.

تؤخذ الزكاة من الأغنياء لترد على الفقراء. فهي من الأمة وإليها.

والأرجح أن يعطى الفقير من الزكاة كفاية العمر الغالب لأمثاله، متى اتسعت حصيلة الزكاة لذلك. وبذلك يصبح في العام القادم يدا معطية لا آخذة. عليا لا سفلي.

وقد الفت كتب في هذا الموضوع، ينبغي أن تراجع[١٣] . وفي كتابنا (الصحوة

---

١٣ – من ذلك : كتب الشيخ محمد الغزالي الأول : الاسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية، والاسلام المفتري عليه، وكتاب الشهيد سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام. وكتاب المرحوم مصطفى السباعي: اشتراكية الاسلام. وكتابنا: فقه الزكاة، ومشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام.

الاسلامية وهموم الوطن العربي والاسلامي) خطوط عريضة مركزة لمقومات العدل الاجتماعي في الاسلام، يحسن الرجوع إليها.

الاخـــاء :

ومن القيم الانسانية الاجتماعية التي دعا إليها الاسلام : الاخاء أو الاخوة ومعناه : ان يعيش الناس في المجتمع متحابين مترابطين متناصرين، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة، التي يحب بعضها بعضا، ويشد بعضها أزر بعض، يحس كل منها أن قوة أخيه قوة له، وأن ضعفه ضعف له، وانه قليل بنفسه كثير بإخوانه.

ولأهمية هذه القيمة في بناء المجتمع المسلم خصصنا لها فصلاً كاملاً.

والقرآن يجعل الاخاء في المجتمع المؤمن صنو الايمان، ولا ينفصل عنه، يقول تعالى «إنما المؤمنون إخوة» (الحجرات : ١٠).

ويجعل القرآن الإخوة نعمة من أعظم النعم، فيقول : «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا». (آل عمران : ١٠٣).

ويقول في سورة أخرى ممتنا على رسوله الكريم «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم» (الأنفال : ٦٢، ٦٣).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه.. لاتحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تناجشوا... وكونوا عباد الله أخوانا».

وقد روى الامام أحمد من حديث زيد بن ارقم : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول دبر كل صلاة :

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك».

«اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة».

فجعل إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالعبودية والرسالة.

وقوله : «ان العباد كلهم أخوة» يحتمل معنيين كلاهما صحيح :-

الأول : ان العباد هنا هم البشر كافة، فهم أخوة بعضهم لبعض، بحكم البنوة لأدم، والعبودية لله سبحانه. وهذه أخوة انسانية عامة.

وقد وصف الله تعالى عددا من الرسل في القرآن بأنهم إخوة لاقوامهم رغم كفرهم برسالتهم، لاشتراكهم معهم في الجنس والأصل، كما في قوله تعالى : «وإلى عاد أخاهم هودا» «وإلى ثمود أخاهم صالحا» «وإلى مدين أخاهم شعيبا».

الثاني : ان العباد هنا هم المسلمون خاصة، بحكم اشتراكهم في ملة واحدة، تضمهم عقيدة واحدة هي التوحيد، وقبلة واحده هي الكعبة البيت الحرام، وكتاب واحد هو القرآن، ورسول واحد هو محمد عليه الصلاة والسلام، ومنهج واحد، هو شريعة الاسلام.

وهذه أخوة دينية خاصة، لا تنافي الأولى، إذ لا تنافي بين الخاص والعام.

كل ما في الأمر أن لهذه الأخوة حقوقا أكثر، بمقتضى وحدة العقيدة والشريعة، والفكر والسلوك.

المحبة ومراتبها :

ومن العناصر الأساسية لهذه الأ خوة : المحبة، وأدنى درجات المحبة سلامة الصدور من الحسد والبغضاء والأحقاد وأسباب العداوة والشحناء.

والقرآن يعتبر العداوة والبغضاء عقوبة قدرية يعاقب الله بها من يكفرون برسالاته، وينحرفون عن آياته، كما قال تعالى : «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا. فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون» (المائدة : ١٤).

ويتحدث القرآن عن الخمر والميسر وهما من الكبائر الموبقة في نظر الاسلام، فيجعل العلة الأولى في تحريهما، الجديرة بالنص عليها، هي إيقاع العداوة والبغضاء في المجتمع، رغم مالهما من مضار ومساوىء أخرى لا تخفى، فيقول تعالى : «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة» (المائدة : ٩١).

وقد جاء في الحديث تسمية هذه الآفات (داء الأمم).

وفي حديث آخر، سماها : الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر، وذلك لخطرها على الجماعة وتماسكها المادي والمعنوي. وفي هذا يقول الحديث :

«دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء. والبغضاء هي الحالقة لا أقول : تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[١٤] .

«ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟ إصلاح ذات البين، فان فساد ذات البين هي الحالقة[١٥] . وفي رواية : لا أقول : تحلق الشعر ولكن تحلق الدين».

«تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا»[١٦] .

«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[١٧] .

«ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤسهم شبرا : رجل أم قوما وهم له كارهون، وأمرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان»[١٨] أي متقاطعان.

ان جو البغضاء والشحناء جو عفن كريه، تروج فيه كل بضائع الشيطان من سوء الظن، والتجسس، والغيبة والنميمة، وقول الزور، والسب واللعن، وقد ينتهي إلى أن يقاتل الأخوة بعضهم بعضا. وهذا هو الخطر، الذي حذر منه النبي الكريم، واعتبره من أثر الجاهلية، وقال :

«لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[١٩] .

---

١٤ – رواه البزار بإسناد جيد والبيهقي.

١٥ – رواه أبو داود والترمذي وصححه عن أبي الدرداء.

١٦ – رواه مسلم عن أبي هريرة.

١٧ – رواه الشيخان عن أبي أيوب.

١٨ – رواه ابن ماجه.

١٩ – رواه الشيخان عن جرير، وعن ابن عمر والبخاري عن أبي بكرة وابن عباس.

«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[٢٠] .

لهذا كان اصلاح ذات البين من أفضل الأعمال والقربات إلى الله تعالى : «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون» (الحجرات : ١٠).

«فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين» (الأنفال : ١).

«لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما» (النساء : ١١٤).

بل جعلت الشريعة سهما من حصيلة الزكاة للغارمين في اصلاح ذات البين، اعانة لهم على القيام بهذه المكرمات، التي كان يقوم بها أصحاب القلوب الكبيرة والهمم العالية، فيتحملون ما بين القبائل المتخاصمة من ديات ومغارم وان ضاقت بذلك أموالهم.

ولأهمية اصلاح ذات البين، رخص النبي صلى الله عليه وسلم لمن يقوم بالاصلاح ألاّ يلتزم الصدق الكامل في وصف موقف كل طرف من الآخر، فنقل بعض العبارات كما قيلت، قد يؤجج نار الخصومة ولا يطفئها، فلا بأس بشيء من التزيين، وشيء من المعاريض، وفي هذا جاء الحديث الصحيح : «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا، أو أنمى خيراً»[٢١] .

وأعلى من هذه الدرجة - درجة سلامة الصدور من الأحقاد والبغضاء - الدرجة التي عبر عنها الحديث الصحيح الذي يقول : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢٢] .

وفي لفظ : «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»[٢٣] .

---

٢٠ - رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود.

٢١ - متفق عليه عن أم كلثوم بنت عقبة.

٢٢ - متفق عليه عن أنس.

٢٣ - رواه أحمد والنسائي عن أنس أيضاً.

ومقتضى ذلك : ان يكره له ما يكره لنفسه.

فإذا كان يحب لنفسه رغد العيش أحب ذلك لسائر الناس.

وإذا كان يحب أن يوفق في حياته الزوجية، أحب للناس أن يكونوا سعداء موفقين.

وإذا كان يحب أن يكون أولاده نجباء، أحب ذلك لغيره.

وإذا كان لا يحب ان يذكره أحد بسوء في حضرته أو غيبته، كان موجب الايمان ألا يحب ذلك للناس أجمعين.

فهو ينزل أخوانه منزلة نفسه في كل ما يحب ويكره.

درجة الإيثار :

وثمت درجة أعلى من هذه وتلك : هي درجة الايثار.

ومعنى الإيثار : أن يقدم أخاه على نفسه في كل ما يحب، فهو يجوع ليشبع أخوه، ويظمأ ليرتوي، ويسهر لينام، ويجهد ليرتاح، ويعرض صدره للرصاص ليفدي أخاه.

وقد عرض لنا القرآن صورة وضيئة للمجتمع المسلم في المدينة، يتجلى فيها معنى الإيثار والبذل من غير شح ولا بخل. يقول تعالى : «والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة حما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصه، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» (الحشر : ٩).

وفي السنة نجد صورة أخرى تتمثل فيما رواه البخاري أن سعد بن الربيع عرض على عبدالرحمن بن عوف – وقد آخى النبي بينهما – ان يتنازل عن شطر ماله ، وعن احدى داريه، واحدى زوجتيه، يطلقها ليتزوجها هو. فقال ابن عوف لسعد : بارك الله لك في أهلك، وبارك الله لك في دارك، وبارك لك في مالك، انما أنا امرؤ تاجر، فدلوني على السوق!

إيثار نادر قل أن تعرف الدنيا له نظيرا، يقابله تعفف كريم نبيل، وكلاهما يعطينا ملمحا من ملامح المجتمع المسلم الذي أقامه الرسول الكريم في المدينة، والذي نرنو إلى مثله دائما، باعتباره مثلا أعلى للمجتمعات.

والاسلام يحرص كل الحرص على أن تسود المحبة والأخوة بين الناس جميعاً : بين

الشعوب بعضها وبعض، لا يفرق بينهما اختلاف عنصر أو لون أو لغة أو اقليم.

وبين الطبقات بعضها وبعض، فلا مجال لصراع أو حقد، وان تفاوتوا في الثروة والمنزلة، وفضل الله بعضهم على بعض في الرزق.

وبين الحكام والمحكومين، فلا محل لاستعلاء حاكم على محكوم، فان الحاكم هو وكيل الأمة بل أجيرها، ولا لبغض محكوم لحاكم مادام يأخذ حقه، كما يؤدي واجبه، وفي الحديث : «خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم» أي تدعون لهم، ويدعون لكم، فالصلاة هنا بمعناها اللغوي وهو الدعاء.

ربط النظرية بالتطبيق :

والاسلام لا يحب أن تكون دعوته مجرد فكرة في الرؤوس، أو حلما في اخيلة المصلحين، بل يحب أن يربط الفكرة بالعمل، والنظرية بالتطبيق.. لهذا دعا إلى مجموعة من الشعائر والآداب والتقاليد من شأنها ان توثق روابط المحبة بين الناس، إذا عملوا بها، وحافظوا عليها.

من ذلك أفشاء السلام كلما لقى بعضهم بعضا، وهذا ما نبه عليه الحديث الصحيح : «والذي نفسي بيدي لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. إلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[٢٤] .

ومن ذلك مجاملة الناس بعضهم لبعض، في التهنئة عند النعمة، والتعزية عند المصيبة، وعيادة المريض، وتشميت العاطس.

ومن ذلك : التهادي بين الناس في المناسبات الطيبة. وفي الحديث : «تهادوا تحابوا»[٢٥] .

ومن ذلك : التلاقي، الذي به تتعارف الوجوه، وتتصافح الأيدي، وهذا ما شرعه الإسلام بصلاة الجماعة والجمعة والعيدين.

كما حرم الاسلام كل الرذائل الخلقية والاجتماعية التي تفضي إلى تقطع أواصر

---

٢٤ – رواه مسلم عن أبي هريرة.

٢٥ – رواه أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة، وسنده حسن كما في صحيح الجامع الصغير.

المحبة والمودة بين الناس، ولهذا رأينا القرآن الكريم بعد أن قرر أن المؤمنين أخوة أتبع ذلك بالنهي عن مجموعة من الرذائل التي تنافي الأخوة، وتعمل في بنيانها هدما. مثل السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والتجسس على الناس، وتتبع عوراتهم، وسوء الظن بهم، والحديث عنهم بسوء في غيبتهم، وذلك في قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون. يا أيها الذين آمنوا أجتنبوا كثيرا من الظن إن بعد الظن أثم. ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا. أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه. واتقوا الله. إن الله تواب رحيم» (الحجرات : ١١، ١٢).

الوحدة من لوازم الإخاء :

ومن لوازم الأخوة ومظاهرها : الوحدة. ومما يضادها وينقضها : الفرقة.

فالمجتمع المسلم المتآخي مجتمع واحد، في عقائده الايمانية، وفي شعائره التعبدية، وفي مفاهيمه الفكرية، وفي فضائله الأخلاقية، وفي اتجاهاته النفسية، وآدابه السلوكية، وفي تقاليده الاجتماعية، وفي قيمه الانسانية، وفي أسسه التشريعية.

واحد في أهدافه التي تصل الأرض بالسماء، والدنيا بالأخرة، والخلق بالخالق، وفي أسس مناهجه التي تجمع بين المثالية والواقعية، وتوازن بين الثبات والتطور، وبين استلهام التراث والاستفادة من العصر.

واحد في مصادره التي يستمد منها هدايته، وهي القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفي المثل الأعلى الذي يستمد منه الأسوة الحسنة، وهو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. فهو مجتمع يؤمن برب واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد، ويتجه إلى قبلة واحدة بشعائر واحدة، ويحتكم في كل أموره إلى شريعة واحدة : وولاؤه – حيث كان – ولاء واحد، لله ولرسوله ولأمة الاسلام. في الله يحب، وفيه يبغض وفيه يصل، وفيه يقطع «لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو أخوانهم أو عشيرتهم» (المجادلة : ٢٢).

لا ينبغي ان يفرق هذا المجتمع ما يفرق المجتمعات الأخرى من العصبية للجنس أو

اللون أو الوطن أو اللغة أو الطبقة أو المذهب، أو غير ذلك مما يمزق الجماعات.

فالأخوة الاسلامية فوق كل العصبيات أيا كانت اسمها ونوعها. والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – برئ من كل العصبيات «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[٢٦] .

والقرآن يحذر من دسائس غير المسلمين الذي يكيدون لهم ليفرقوا كلمتهم، ويمزقوا وحدتهم، كما فعل ذلك اليهود في الايقاع بين الاوس والخزرج بعد أن جمعهم الله على الاسلام : «يايها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم... إلى ان قال : «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (آل عمران : ١٠٠، ١٠٣).

وفي هذا السياق حذر من التفرق والاختلاف فقال : «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» (آل عمران : ١٠٥).

وبين آية الامر بالاعتصام بحبل الله وآية التحذير من التفرق والاختلاف، ذكرت آية تكليف الامة بالدعوة والأمر والنهي «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون» (آل عمران : ١٠٤).

وهذا يدلنا على أن الذي يوحد الأمة ويجمع شتاتها : وجود منهج موحد تعتصم به وترجع إليه، وهو هنا حبل الله : الأسلام والقرآن، ووجود رسالة مشتركة تشتغل بها، وتجعلها أكبر همها، وهي هنا الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اما إذا قعدت الأمة عن الرسالة، أو فقدت المنهج، فإن السبل ستتفرق بها عن يمين وشمال، والشياطين ستتجاذبها من شرق وغرب، وهو ما حذر منه القرآن بقوله : «وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم

---

٢٦ – رواه أبو داود عن جبير بن مطعم.

به لعلكم تتقون» (الأنعام : ١٥٢).

والوحدة المفروضة في الأمة المسلمة لا تعارض التنوع الذي يقتضيه اختلاف البيئات والاعراف بتأثير الحضارات المختلفة والمواريث الثقافية المتعددة. فهو تنوع في اطار الوحدة الجامعة وهو اشبه بتنوع المواهب والميول والافكار والتخصصات داخل الأسرة الواحدة.. أو تنوع الأزهار والثمار داخل الحديقة الواحدة «يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل» (الرعد : ٤).

ومن أهم ما جاء به الاسلام هنا : شرعية تعدد الاجتهادات في أطار القواعد الكلية والنصوص القطعية المتفق عليها، فلا يجوز أن ينكر مجتهد على مجتهد، وإن اختلف معه في المشرب، ولكل وجهته، ولكل أجره، أصاب ام أخطأ، مادام من أهل الاجتهاد، واختلاف الآراء لا يجوز أن يكون سبب تفبق أو عداوة، فقد أختلف الصحابة وتابعوهم باحسان في قضايا كثيرة، ولم يؤدهم ذلك إلى التفرق، بل وسع بعضهم بعضا، وصلى بعضهم وراء بعض.

ومما يضيق الخلاف أن أمر الامام أو حكم الحاكم في المسائل الخلافية يرفع الخلاف، ويحسم النزاع من الناحية العملية.

التعاون والتناصر والتراحم :

ومن لوازم الإخاء في الاسلام : التعاون والتراحم والتناصر، إذ ما قيمة الأخوة إذا لم تعاون أخاك عند الحاجة، وتنصره عند الشدة، وترحمه عند الضعف؟

لقد صور الرسول الكريم مبلغ التعاون والترابط بين أبناء المجتمع المسلم بعضه وبعض هذا التصوير البليغ المعبر حين قال : «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا»[٢٧] وشبك بين اصابعه. فاللبنة وحدها ضعيفة مهما تكن متانتها وآلاف اللبنات المبعثرة المتناثرة لا تصنع شيئا، ولا تكوّن بناء. انما يتكون البناء القوى من اللبنات المتماسكة المتراصة في صفوف منتظمة، وفق قانون معلوم، عندئذ يتكون من اللبنات جدار متين، ومن الجدار بيت مكين، يصعب أن تنال منه أيدي الهدامين.

كما صور مبلغ تراحم المجتمع وتكامله، وتعاطف بعضه مع بعض بقوله : «ترى

---

٢٧ – متفق عليه عن أبي موسى.

المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا أشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[٢٨] فهو ترابط عضوي، لا يستغني فيه جزء عن آخر، ولا ينفصل عنه، ولا يحيا بدونه، فلا يستغنى الجهاز التنفسي عن الجهاز الهضمي، أو كلاهما عن الجهاز الدموي أو العصبي، فكل جزء متمم للآخر، ويتعاون الأجزاء وتلاحمها يحيا الكل، ويستمر نماؤه وعطاؤه.

ويقول : «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم ادناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم» يرد مشدهم على مضعفهم، ومسرعهم على قاعدهم»[٢٩] .

ويدخل في نصرة المسلم للمسلم عنصرا جديدا حين يقول : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قيل : ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما يارسول الله؟ قال : تأخذ فوق يديه، أو تمنعه من الظلم فذلك نصر له»[٣٠] .

والقرآن الكريم يوجب التعاون ويأمر به بشرط أن يكون تعاونا على البر والتقوى، ويحرمه وينهى عنه إذا كان على الإثم والعدوان. يقول تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» (المائدة : ٢).

ويجعل المؤمنين أولياء بعضهم على بعض، بمقتضى عقد الايمان، كما قال تعالى : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.» (التوبة : ٧١) وهذا في مقابلة وصف مجتمع المنافقين بقوله : «والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم» (التوبة: ٦٩).

كما وصف مجتمع الصحابة بأنهم «أشداء على الكفار، رحماء بينهم» (الفتح : ٢٩) فالتراحم سمة أولى من سمات المجتمع المسلم.

ومقتضى ذلك أن يشد القوى أزر الضعيف، وأن يأخذ الغني بيد الفقير، وأن ينير العالم الطريق للجاهل. وان يرحم الكبير الصغير، كما يوقر الصغير الكبير، ويعرف الجاهل للعالم حقه، وأن يقف الجميع صفا واحدا في الشدائد والمعارك العسكرية

---

٢٨ – متفق عليه عن النعمان بن بشير.

٢٩ – رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بإسناد حسن.

٣٠ – رواه البخاري عن أنس.

والسلمية، كما قال تعالى : «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» (الصف : ٤).

وفي قصص القرآن صور حية للتعاون المثمر البناء.

من ذلك صورة التعاون بين موسى وأخيه هارون، وقد سأل الله أن يشد به أزره في قيامه برسالته «واجعل لي وزيرا من أهلي. هارون أخي، أشدد به أزري وأشركه في أمريء. كي نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا، إنك كنت بنا بصيرا» (طه : ٢٩-٣٥).

وكان الجواب الالهي : «قال : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا» (القصص : ٣٥).

وبهذا كان هارون يعاون أخاه موسى في حضرته، ويخلفه على قومه في غيبته.

ومن صور التعاون ما قصه علينا القرآن من اقامة سد ذي القرنين العظيم، ليقف حاجزا ضد هجمات يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض. وكان ثمرة للتعاون بين الحاكم الصالح والشعب الحريص على سيادته وحريته. «قالوا : ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا علي أن تجعل بيننا وبينهم سدا. قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا، حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا. فما اسْطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا» (الكهف : ٩٤-٩٧).

التكافل المادي والادبي :

ومن مظاهر هذا التعاون والتراحم والتناصر : التكافل بين أبناء المجتمع المسلم، وهو تكافل مادي ومعنوي، اقتصادي وسياسي، عسكري ومدني، اجتماعي وثقافي.

يبدأ هذا التكافل بين الأقارب بعضهم وبعض، كما يفصِّل ذلك نظام النفقات في شريعة الاسلام. فالقريب الموسر ينفق على قريبه المعسر وفق شروط وأحكام مفصلة في الفقة الاسلامي. كما قال الله تعالى : «وأولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله» (الأنفال : ٧٥).

ثم تتسع دائرة هذا التكافل لتشمل الجيران وأبناء الحي الواحد في البلد الواحد، بمقتضى حق الجوار، الذي اكده الاسلام، وفي الحديث : «ليس بمؤمن من بات شبعان

وجاره إلى جنبه جائع»[٣١]

وفي الحديث الأخر : «ايما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله»[٣٢] .

ثم تتسع اكثر واكثر بحيث تشمل الاقليم عن طريق الزكاة، التي أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن تؤخذ من أغنياء كل اقليم لترد على فقرائه، فوضع بذلك أساس التوزيع المحلي، على عكس ما كان يصنع في الحضارات السابقة على الاسلام، فقد كانت الضرائب تؤخذ من مزارعي ومحترفي الأقاليم النائية والقرى البعيدة، لتوزع في المدن الكبيرة، ولاسيما عاصمة الملك أو الأمبراطور.

ثم تزداد اتساعا ليشمل التكافل المجتمع كله.

ومنذ فجر الدعوة إلى الاسلام في مكة، والمسلمون أفراد معدودون مضطهدون، ليس لهم كيان ولا سلطان، كان القرآن يدعو بقوة إلى هذا التكافل بجعل المجتمع كالأسرة الواحدة، يصب الواجد فيه على المحروم، ويحمل فيه الغني الفقير.

ولم يجعل القرآن ذلك شيئا من نوافل الدين، يقوم به من ترقى في درجات الايمان والاحسان، ولا يطالب به الشخص العادي من الناس.

بل اعتبره القرآن أمراً أساسياً من دعائم الدين، لا يحظي برضا الله من لم يقم به، ولا ينجو من عذابه من فرط فيه.

اقرأ في السور المكية مثل هذه الآيات : «فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة؟. فك رقبة. أو إطعام في يوم ذي مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصو بالمرحمة» (البلد : ١١-١٧).

وقوله تعالى في سورة أخرى : «كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين في

---

٣١ - رواه الطبراني وابويعلي ورواته ثقات عن ابن عباس، ورواه الحاكم من حديث عائشة بنحوه وصححه ووافقه الذهبي.

٣٢ - رواه أحمد وأبويعلي والبزار والحاكم. وقال المنذري في الترغيب : بعض أسانيده جيد، وكذا العراقي في تخريج (الإحياء) وصححه الشيخ شاكر في تخريج المسند برقم (٤٨٨٠) وانظر الحديث (١٠١٨) من كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب).

جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر؟ قالوا : لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين..» (المدثر : ٣٨-٤٤).

فجعل مصيرهم النار : لانهم أضاعوا حق الله بإضاعة الصلاة، وأضاعوا حق عباده، إذ لم يطعموا المسكين.

واطعام المسكين كناية عن رعاية ضروراته وحاجاته، اذ لا معنى لان نطعم المسكين وندعه مشردا بلا مأوى، أو عريانا بلا كسوة، أو مريضا بلا علاج.

ولم يكتف القرآن بإيجاب اطعام المسكين، بل زاد على ذلك فأوجب الحض على اطعامه، والحث على رعايته، وجعل إهمال ذلك من دلائل الكفر والتكذيب بالدين «أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين» (الماعون : ١ - ٣).

ويجعل ذلك مع الكفر بالله من موجبات العذاب الأليم، واصطلاء الجحيم. فيقول في شأن أصحاب الشمال ممن اطغاه ماله وسلطانه، فلم يغن عنه من الله شيئا : «خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه» ثم يذكر أسباب هذا الحكم الشديد، فيقول : «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين» (الحاقة : ٢٩ - ٣٤).

ويزيد على ذلك فيوجب في المال حقا معلوما، ليس بصدقة تطوعية، ولا باحسان اختياري، من شاء أداه، ومن شاء تركه، بل حق أي دين في عنق المكلفين، وحق معلوم غير مجهول، كما في قوله تعالى في وصف المتقين «وفي اموالهم حق للسائل والمحروم» (الذاريات : ١٩).

وفي سورة أخرى يصف الحق بالمعلومية فيقول : «والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم» (المعارج : ٢٤، ٢٥).

وفي الحديث عن الزروع والثمار، والجنات المعروشات وغير المعروشات يقول سبحانه : «كلوا من ثمره إذا اثمر واتوا حقه يوم حصاده» (الأنعام : ١٤١).

وهذا الحق هو الزكاة، التي فرضت في مكة غير محددة ولا مفصلة.

كل هذا في القرآن المكي، فلما أصبح للمسلمين دولة وسلطان، حددت أنصبة الزكاة

ومقاديرها بوضوح، وبعث السعاة ليجمعوها من أهلها، ويصرفوها في محلها. وهم الذين سماهم القرآن (العاملين عليها) وجعل لهم نصيبا من حصيلة الزكاة نفسها، ضمانا لحسن تحصيلها وتوزيعها. ووصل الاسلام بهذه الفريضة المالية إلى أعلى درجات الالزام الخلقي والتشريعي فجعلها ثالث أركان الاسلام، واوجب أخذها كرها، ان لم تدفع طوعا، ولم يتردد في قتال من منعوها إذا كانوا ذوي شوكة وقوة.

وهذا التكافل المادي أو المعيشي ليس هو كل ما طلبه الاسلام في هذا المجال بل هناك أنواع أخرى من التكافل، ذكرها العلامة الفقية الداعية الدكتور- مصطفى السباعي - رحمه الله - وجعلها بالتكافل المعيشي عشرة كاملة[٣٣] .

أخوة لكل الفئات لا طبقية :

الأخوة في الاسلام تشمل كل فئات المجتمع، فليس هناك فئة من الناس أعلى من ان تؤاخي الآخرين. ولا فئة أهون من أن يؤاخيها الآخرون. لا يجوز أن يكون المال أو المنصب أو النسب. أو أي وضع اجتماعي أو مادي أو غير مادي سببا لاستعلاء بعض الناس على بعض.

فالحاكم أخو المحكوم، والراعي أخ لرعيته، وفي الحديث : «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونهم، وتصلون عليهم، ويصلون عليكم (أي تدعون لهم، ويدعون لكم) وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم، ويلعنونكم»[٣٤] .

والسيد أخ لعبده، وان أوجبت ظروف خاصة ان يكون تحت يده. وفي الصحيح : «إخوانكم خولكم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم، ولو شاء جعلكم تحت أيديهم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٣٥] .

والأغنياء والفقراء، والعمال وارباب العمل، والملاك والمستأجرون، كلهم أخوة بعضهم لبعض، فلا مجال في ضوء تعاليم الاسلام - لصراع اجتماعي، أو حقد طبقي.

---

٣٣ - تراجع في كتابه (اشتراكية الاسلام).

٣٤ - مسلم عن عوف بن مالك.

٣٥ - متفق عليه عن أبي ذر.

بل لا يوجد في المجتمع الاسلامي طبقات، كما عرف ذلك في المجتمع الغربي في العصور الوسطى، الذي عرف طبقات النبلاء والفرسان، ورجال الدين وغيرهم، وكانت هذه الطبقية تتوارث بحكم القيم والتقاليد والقوانين السائدة.

ولازال بعض الأمم إلى اليوم يتوارث الطبقية بحكم عقائده واعرافه وانظمته، كما في الهند.

يوجد في الاسلام أغنياء، ولكنهم لا يكوّنون طبقة تتوارث الغنى، بل هم افراد يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم، فالغني قد يفتقر، كما ان الفقير قد يغتني «فان مع العسر يسرا» (الانشراح : ٥).

ويوجد في الاسلام (علماء دين) ولكنهم لا يكوّنون طبقة تتوارث هذه المهنة، بل هي وظيفة مفتوحة لكل من حصل مؤهلاتها من العلم والدراسة. وهي على كل حال ليست وظيفة كهنوتية كوظائف القسس ورجال الدين في الاديان الاخرى. إنما هي وظيفة تعليم ودعوة وافتاء. فهم (علماء) لا (كهنة)!

وإذا كان الله تعالى يخاطب رسوله - صلى الله عليه وسلم - بقوله : «إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» (الغاشية : ٢١، ٢٢) «نحن أعلم بما يقولون، وما أنت عليهم بجبار، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد» (ق : ٤٥) فكيف بورثته من العلماء؟ انهم لن يكونوا - قطعا - مسيطرين ولا جبارين على الناس. إنما هم معلمون ومذكرون.